جامعة الشارقة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مؤتمر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

واقع وآفاق

المحور الأول

أهمية التفسير الموضوعي في حياة الأمة

العناصر

1- منهجيته في معالجة القضايا المستجدة

2- تأصيل العلوم المعاصرة

3- تصحيح مسار بعض العلوم الإسلامية

بقلم

الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر و أم القرى (سابقاً)

1431 هـ 2010 م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الرسول الأمين ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين (وبعد:)

فإن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين، وهدايته الشاملة، وحجته البالغة، ومعجزته الباقية، المحفوظة بأمره، والمنزلة بعلمه.

ولأن (التفسير الموضوعي) مظهر موضوعات القرآن المتكاثرة، ومبرز ما فيها من إعجازه وامتيازه، كان لذلك علما بالغ الشرف والجلال، مبارك الآثار والثمار ، كالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربهّا.

ولله الحمد والفضل والمنة إذ وفقني الله لخدمة هذا العلم الشريف معظم عمري، درسًا وتدريسًا، ومحاضرة وتأليفا، ومقالا وتحقيقا، ومطالعات ومراجعات، وقد رأيت من تيسير الله لأموره ما زادني يقينا في شرفه، وكأنه (إرهاص) بين يدي البعث الإسلامي المرتقب بإذن الله ، وإذا أراد الله أمرا هيّأ له الأسباب، وفتح له مغاليق الأبواب، (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ) آل عمران:7

ولذلك نزجي الدعاء والثناء لكل من ساهم في إقامة هذا المؤتمر العلمي الجامع من الأساتذة والعلماء، وأصحاب القرار، الذين أحسنوا التقدير والاختيار، ولعل هذه بشرى بالقبول، وإحراز شرف السبق في الدنيا بإتمام هذا المشروع الجليل، (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) سورة يوسف:57

لقد كان هذا المؤتمر (أملا) كبيرًا تمنيناه.

و(دعاء) كريمًا إلى الله عز وجل رفعناه.

(ونداء) متكررًا توجهنا به إلى العلماء والجامعات، والمؤسسات الإسلامية و كتبنا ذلك ونشرناه.

والآن يتحقق ذلك كله على يد من شاء الله أن يكرمهم بهذا الفضل ، أو يختصهم بهذا الشرف العظيم.

ولكن يبقى الدعاء الموصول، والرجاء المأمول أن يتحول الأمل إلى خطة عمل ، وأن تتحول الأقوال إلى حقائق وأفعال، بأن يرتب هذا المؤتمر الموقر إقامة (هيئة إشراف وتنفيذ) لتخرج للناس (الجامع في التفسير الموضوعي) على نمط علمي دقيق ، عبر تخطيط علمي مرتب ومنظم، تستكتب فيه العلماء المتخصصين، وتنسق مراجعة ما يكتب على وجه التحقيق والتحرير، وتصدر الأجزاء تباعًا، وهذه مهمة كبيرة، قد تستغرق عدة أعوام، لإصدار ما يزيد على (العشرين) جزءا كبيرًا، على ما سنبينه إن شاء الله تفصيلا في بحثي عن (المحور الرابع) من محاور المؤتمر.

****

وسنتحدث هنا عن عناصر (المحور الأول) بالترتيب فنقول وبالله التوفيق:

العنصر الأول: التفسير الموضوعي ومعالجة القضايا المستجدة

(التفسير الموضوعي) علم قديم النشأة ، جديد الوجهة ، حين يقوم على قواعده وأصوله ، وعلى الرابطة القريبة بين آيات الموضوع ولذلك تكون له آثار واسعة، وفوائده متجددة منها:

أولا: إبراز إعجاز القرآن: على وجه يلائم العصر :

ذلك لأن القرآن الكريم إذا كان قد أعجز الأقدمين بلفظه ونظمه وبلاغته، فإن الآخرين لابد لإعجازهم من وجه مستمر المدى، استمرار التحدي، وهذا يتمثل في معاني القرآن وموضوعاته من طريقين :

1 – شمول القرآن لكل هذه الموضوعات المتكاثرة مع قلة حجمه، ووجازة لفظه، وهذا يخالف معهود الكتب، وقدرات البشر، كما قال الراغب (1) رحمه الله "وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم، وبحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه، والآلات الدنيوية عن استيفائه كما نبه عليه بقوله: (وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) لقمان:27

2– كمال كل موضوع منه على حدة، حين نجمعه الآن، ونؤلف منه كيانًا واحدًا مؤتلفًا غير مختلف، وهذا من أعظم وجوه الإعجاز.

---

(1) انظر مقدمة كتاب المفردات للراغب الأصفاني

ذلك لأن القرآن قد تواتر نزوله نجوما متفرقة، على مدار ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا، ما بين مكة والمدينة، والسفر والحضر، وفي ظروف متباينة كالسلم والحرب، والنصر والهزيمة، والمنحة والمحنة، والجماعة المطاردة، والدولة المستقرة.

نزلت نجوم كل موضوع مفرقة على هذه الأماكن والظروف، ووضعت في سورها متباعدة، وبينها في النزول فواصل زمنية مختلفة...

ومع هذا كله حين ننظر إلى كل نجم نجده في موقعه من ترتيب السورة الواحدة، متـآلفًا متناسقًا مع سابقه ولاحقه.

ثم حين نجمع (نجوم الموضوع) معًا نجدها على غاية التوافق والتناسق، وكأن أقساطه جميعًا قد نزلت في وقت واحد، تعالج قضية ما في موعدها وظروفها، ونجد قانونًا واحدًا ينتظم النجوم جميعا، وهذا ضرب بالغ الإعجاز، لا يستطيعه بشر مهما أوتي من إحكام العقل، وجودة العلم والفكر.

ثانيا:الوفاء بحاجات هذا العصر إلى الدين :

وهي حاجات كثيرة متشعبة، بعضها عام، وبعضها خاص، ومنها:

1- حاجة البشر عامة :

فالبشر الآن حائرون على مفترق الطرق، وليس لهم دين صحيح، ولا رسالة هادية، وقد غلب عليهم الإلحاد والعناد، وزين لهم شياطين الحضارة المعاصرة أن الدين طور متخلف مضى زمانه، أو أنه مفهوم قاصر على الفرد والضمير، وليس له شأن بالسلوك الاجتماعي والدولي.

ولم يبق كتاب إلهي على وجه الأرض يمثل الدين الصحيح إلا القرآن، لذلك يحتاج الناس إلى معرفة هديه غاية الاحتياج، وإلى فهم ما حواه من شمول موضوعي بالغ غاية الكمال، وإلى إدراك ما يقدمه لهم من حلول لمشكلاتهم النفسية والاجتماعية، ومعضلاتهم الأخلاقية والاقتصادية، ولا يتحقق ذلك إلا بدراسات علمية جادة لموضوعات القرآن الكريم، ثم تنصب أمام الناس مثلا أعلى، وحبلا ممدودًا للنجاة من هذه المحنة العالمية الطاغية، فإما أن يؤوب الناس إلى دين الفطرة، أو تقوم عليهم الحجة البالغة، التي من أجلها تعهد الله تعالى بحفظ القرآن، وجعله صوت النبوة الممدود إلى يوم الدين.

2- حاجة المسلمين خاصة :

فلقد فتن المسلمون بزخارف الحضارة المادية، وتبعوا سنن الكفار في القوانين والأخلاق والتربية، ولذلك يحتاجون قبل غيرهم إلى فهم شمول الهدي القرآني، واتساع موضوعاته لكل شئون حياتهم، وبذلك يقبلون على تطبيقه بيقين واقتناع، ويقدمونه للناس عن معرفة وتجربة، ويبذلون في سبيله النفس والنفيس عن رضا وطواعية لأنه الحق الوحيد في الأرض، والذي يغنيهم عن تسول المبادئ من الشرق أو الغرب، بل إن الدنيا كلها محتاجة إليه، وبذلك ينقذ المسلمون أنفسهم، والعالم كله من ورائهم، بهذا الهدى القرآني الجامع، الذي أنقذهم أول مرة، وصدق الله (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)(الإسراء:9)

العنصر الثاني: تأصيل الدراسات القرآنية والعلمية بعلوم جديدة :

فمن المقرر الثابت أن كتابًا في الأرض لم ينل ما ناله القرآن الكريم من عناية ودراسة، وقد بذل علماؤنا من قديم جهودًا خارقة لخدمة الكتاب الكريم، غير أن القرآن من السعة والاستبحار بحيث لا تنفد معانيه، بل يجد العلماء منها جديدًا في كل

عصر، وربما أربى اللاحق على سابقه بما يفتح الله له من كنوز القرآن العظيم، وهذا معنى ما نددندن حوله من تجدد ألوان الإعجاز القرآني، بتجدد الزمان(1).

وإني على مثل اليقين، أن جمع الآيات الكريمة جمعًا موضوعيًا، وتفسيرها على هذا النمط، مع إحصاء الألفاظ، واستقصاء المعاني، وتتبع تعدد الدلالات القرآنية في مواضعها وموضوعاتها، هذا اللون حين تنضج مباحثه، سيكون له أعظم الأثر في إبراز علوم قرآنية جديدة، ودفعها نحو التأصيل والاكتمال، بإذن الله تعالى، ومن ذلك:

أولا: علم الأصول القرآنية :

وهو ابتداء أوسع مدى وشمولا من علم (أصول الفقه) المعروف، لأننا نعني به: الأصول الجامعة، والقواعد الحاكمة، والقوانين العليا التي تضبط كل ما يتصل بالقرآن، والإسلام، من علوم وفنون، وليس علم الفقه فقط.

ومن المقرر أن القرآن الكريم هو دستور محيط، يضم في تضاعيفه هذه الضوابط الكلية الجامعة، وقد أدرك علماؤنا هذه الحقائق من قديم، وتناولوها بالبحث والاستنباط، وسجلوها نثرًا في مواضعها من مباحث العلوم الإسلامية واللغوية، غير أن طرائق علمائنا –نضر الله تاريخهم– لم تكن تقوم دائمًا على الإحصاء والاستقراء الكلي الشامل لكل أطراف الموضوع.

---

(1) هذا أمر كثير التكرر في الدراسات الإسلامية والقرآنية ويكفي مثالا كتاب: "الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، فقد ألفه في أواخر القرن التاسع الهجري، وفاق به القرون السابقة، وصدق حين ختم كتابه هذا بقوله:

"قد من الله تعالى بإتمام هذا الكتاب.. البديع المثال.. الجامع لفوائد ومحاسن لم تجتمع في كتاب قبله في العصر الخوالي"

ثم لم يمتد نطاقها إلى كل المباحث العلمية المتصلة بالقرآن الكريم من حيث منهجه الديني، وأسلوبه التربوي والاستدلالي، ولغته العربية الخاصة به ونحو ذلك من جوانبه الواسعة.

فلا تزال بعض قواعد أئمتنا السابقين تحتاج إلى مزيد من التحرير في الكيف والكم، أو من حيث (الكمال، والتمام) الذي عناه القرآن: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي المائدة:3)

وهذا ليس بعيب على السابقين رضي الله عنهم، فلقد وطّؤوا أكناف العلم، وجمعوا شتات المسائل، وتركوا لمن بعدهم إتمام البناء، وإنما العيب على اللاحقين إن رضوا بالقعود مع الخالفين.

وعلى سبيل المثال :

أ- لقد كان علم (أصول الفقه) هو أوفر العلوم حظا من حيث التأصيل، وأخذ القواعد الكلية من القرآن، والسنة النبوية.

ومع ذلك لم تزل فيه جوانب لم تنل حظها الحقيقي من التأصيل الكلي الشامل، عن طريق القوانين العليا التي تحكم مفردات القواعد، مثل:

1- "التشريع خصوصية إلهية".

2- "السنة النبوية طريق ورود للشرائع، لا طريق إنشاء(1)"

ولقد بحثت هذه القضايا في "أصول الفقه" لكن ليس على طريق الاستقراء القرآني الجامع، وإلا لحسمت مادة الخلاف بين الأصوليين أنفسهم حول: جواز

---

(1) يراجع هذا بأدلته التفصيلية في كتابي "المنهاج القرآني في التشريع" الفصل الثالث : أدلة الأحكام ص 258

الاجتهاد النبوي في وضع الأحكام أو عدمه، مع أن هذه قضية تتعلق بالأصل الأول، القطعي الثبوت والدلالة في القرآن، وهو: "تفرد الله تعالى بالحكم والتشريع".

ب-وعلوم اللغة العربية (كالنحو والصرف) وضعت قواعدها، وأسست أصولها، ولكن ثبت فيها خلل كثير حين عرضت على الأصول القرآنية القائمة على الاستقراء الكلي، والاستيعاب الشامل، كما أثبت ذلك العلامة صاحب المبسوطة النادرة: "دراسات لأسلوب القرآن الكريم"، وإذا كان هذا في علمين وصفهما العلماء بأنهما (نضجًا واحترقًا) من كثرة البحث والتفصيل والتأصيل، فكيف بغيرهما من العلوم التي لم تصل إلى هذا المستوى؟ لا شك أنها محتاجة إلى (الأصول القرآنية) الجامعة أكثر من غيرها.

ج- وفي علم التفسير أمثلة كثيرة منها :

1- "كل قول على الله في التفسير بغير علم فهو باطل وحرام".

فهذا أصل قرآني قطعي عام ثبت بالعديد من الآيات مثل:

- (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)الأعراف:33

- (وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ)النحل:116

2- كل استطراد وحشو لا حاجة إليه في التفسير فهو لغو باطل"

وهذا أيضا أصل قطعي عام ثابت بآيات كثيرة مثل:

(وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) الإسراء: 36 (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) المؤمنون:3

3- "الإسرائيليات ضلالات لا يفسر بها القرآن".

وهذا أيضا أصل قرآني قطعي الثبوت والدلالة، حيث ثبت في صريح العشرات من الآيات تحريف بني إسرائيل لكلام الله تعالى، وافتراؤهم الكذب على الوحي، ونسبة الشناعات إلى الله تعالى، ورسله، وملائكته، وكتبه، والطعن الفاحش في الأنبياء المعصومين، والصديقين الصالحين.

من ذلك قوله تعالى في بني إسرائيل:

- (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) البقرة:75

- (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) آل عمران:78

- (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ....)النساء:156: 157

- (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) النساء:46

وهذا أصل قطعي مأخوذ من صريح القرآن في عشران الآيات، والذي يثبت عليهم تحريف كلام الله تعالى عمدًا، وعلى علم وبصر به(1)، ومن باب أولى يثبت عليهم في كل كلام بعد كلامه سبحانه وتعالى، فكيف ينقل عن أمثال هؤلاء خبر أو قصة، ناهيك عن أمور الدين والرسالة؟!

ومن أعجب العجب في تاريخ العلوم الإسلامية أن يتساهل بعض المفسرين فيدخل هذه "الإسرائيليات" في تفسير كلام الله رب العالمين، وهو أصدق الحديث، وخير الكلام.

والأحاديث التي أباحت التحديث عن بني إسرائيل كان لابد أن تفهم من خلال هذا الأصل القرآني، وأن يكون هو الحَكَمَ في القضية، والحاكم على تحديد معنى الكلام النبوي، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخالف القرآن قط، ولا يعارضه بقول أو فعل، فما أباحه صلى الله عليه وسلم هو وحي يوحى، وهو مخصوص بأمور لا تتعلق بالدين أو التفسير، ولا نقول ذلك ظنًا أو ترجيحًا، وإنما هذا هو عين ما فهمه وقاله "ترجمان القرآن" ابن عباس رضي الله عنهما:

"يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي أنزله الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله محضًا لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله، وغيروا، فكتبوا بأيديهم وقالوا هو: "من عند الله" ليشتروا بذلك ثمنا قليلا، أولا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسألتهم؟! فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم(2)"

---

(1) راجع كتاب: "معركة الوجود بين القرآن والتلمود" فقرة 45-47.

(2) الحديث رواه البخاري في كتاب الشهادات، والتوحيد، وغيرهما، "وانظر فتح الباري جــ5، جــ13 الحديث رقم: 2685،7363،7522،7523".

ولو تقرر هذا (**الأصل القرآني**) في نفس كل مفسر من قديم، لكان هذا خليقا بتطهير علم التفسير من لوثات بني إسرائيل، ولصينت علوم الإسلام عن هذه الأباطيل.

كذلك لو تقررت الأصول القرآنية العليا في جانب "الاعتقاد" لحمت المسلمين من غوائل "الفلسفة اليونانية" ومن ظلماتها الجدلية التي بني على أساسها –مع الأسى– "علم الكلام"(1).

وفي اعتقادي أن جرجرة هذين البلاعين إلى ميدان" "التفسير"، "والاعتقاد" كان أفدح جناية أوقعها المسلمون بدينهم، وأصابتهم في مقاتلهم، ولذلك (فرقوا دينهم وكانوا شيعا)، واتبعوا السبل التي فرقت بهم عن سبيله المستقيم، وصدق الله:

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا) النساء:82

وبهذا يتقرر لدينا أن (الأصول القرآنية) علم بالغ الخطر، جليل الأثر، ولا يستطاع تقريره على وجهه في هذه العجالة، وإنما أردت التمثيل لا التأصيل، وقصدت إلى تنبيه الأذهان، ولفت أنظار العلماء الأجلاء إلى هذا العلم، عسى أن يتجرد له بعضهم بالبحث والتأليف، على نمط التحقيق والتدقيق، والتحديد والتحرير، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

ثانيا: علم "الإعجاز التشريعي":

---

(1) راجع كتاب: "الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام" ص17 وما بعدها مبحث: "غزو قديم".

فمن المقرر أن القرآن ما جاء أصلا إلا للهداية، وتقرير منهاج الله لعباده، وشريعته للناس، وما جاءت وجوه الإعجاز اللغوي، أو العلمي، والتاريخي إلا لخدمة هذا الأصل، واستمالة وجوه الناس إليه.

ومن العجيب أن وجه الإعجاز القرآني في لفظه، ونظمه، وأساليبه البلاغية قد استوفاها العلماء استيفاء يكفي ويشفي، نضر الله وجوههم وأعمالهم.

لكن المعجزة الأصلية وهي (شريعة القرآن)، لم يقع في علمي أن أحدًا من علمائنا الأفذاذ قد كتب عنها على نمط علمي جامع، يقرر به وجوه الإعجاز في قواعدها، وخصائصها، وعناصر الموازنة الفذة في بنائها مثل المرونة والثبات، والعدل والفضل، ونحو ذلك، مع أن هذا (الإعجاز التشريعي) هو المعجزة الدائمة، التي تتحدى البشر في كل زمان ومكان، خاصة في عصور "الغرور العلمي"، والفكري، والمذهبي الذي يسود العالم الآن، أما "الإعجاز اللغوي" فهو كذلك صالح إلى يوم الدين، ولكن لا يوجد أحد على وجه الأرض يصلح أن يكون أهلا لتحدي القرآن الآن، كما كان العرب في أوج فطرتهم البلاغية، وسليقتهم البيانية حين نزل القرآن، والإعجاز أظهر ما يكون حين يتحدى الناس في أقدارهم التي برعوا فيها، وظنوا أنهم وحدهم القادرون عليها.

وللعلماء المعاصرين أبحاث ومقالات جيدة في هذا الباب، ولكنها متناثرة، مثل: ما جاء في تضاعيف تفسير المنار، وكتاب "الوحي المحمدي" للعلامة محمد رشيد رضا رحمه الله، وكذلك ما كتبه العلامة الشيخ الزرقاني رحمه الله في كتابه القيم: "مناهل العرفان في علوم القرآن"(1).

---

(1) انظر على سبيل المثال: الوجه السادس من وجوه الإعجاز جـ2 ص247

وفي تقديري –والله أعلم– أن (التفسير الموضوعي) حين تتضح مباحثه، وتتميز موضوعاته على وجهها العلمي، سيكون هو الأساس الذي تقوم عليه دراسات (علم الإعجاز التشريعي)، كما يتأسس البناء على قواعده وأصوله.

ثالثا: علم "الحكمة القرآنية":

هو علم متمم لسابقه، ولازم له لزوم الظل لصاحبه، لأننا نعني به العلم الذي يبرز: (منهج القرآن في الدعوة والإصلاح)، وأسلوبه في الهداية وتطبيق المبادئ، وطرائقه الفذة في سياسة الأفراد والجماعات، ووسائله العجيبة في طب النفس البشرية وقاية وعلاجًا، من التدرج في التشريع، والرفق، والمطاولة مع الخصوم، والتناسب مع الأحداث والوقائع بتنجيم القرآن، وتقديم التربية والتزكية على المعرفة العقلية المجردة، وتكرار المبادئ والأحكام بشتى الأساليب حتى ترسخ في النفوس، وتقسيط التعليم وإطالة مدته حتى تتشربه القلوب والعقول. وهكذا.

ومن الواضح الفرق بين العلمين :

فالأول: يراده بإظهار الإعجاز في نفس المبادئ القرآنية.

والثاني: يراد به إظهار الإعجاز في الوسائل والأساليب التي طبق بها القرآن هذا المبادئ ليخرج خير أمة أخرجت للناس.

وقد تقرر الأمران في كثير من الآيات القرآنية قال تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) آل عمران:164

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) النحل:125

(...وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) النساء:113

والحكمة تطلق –في الأصل– على كل ما يمنع من السفه، والمراد بها في الآيات الكريمة "فقه القرآن" وفهمه، أو "طريقة الدعوة"، وحكمتها أن تكون على بصيرة وفهم، وقيل "السنة النبوية"، وقيل "القرآن ذاته"، وقيل "إصابة القول والعمل".

والذي يتقرر عندي –والله أعلم– أن المراد بها ما ذكرناه من جانب "الأساليب"، في مقابل "المبادئ"، التي سميت أيضًا باسم محدد هو: "الشريعة" بمعناها الشامل.

وكل سياسة حكيمة، أو طريقة حسنة فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي لب "الحكمة القرآنية" التي أوحيت إليه عليه السلام، ولذلك "كان خلقه القرآن" (1) كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ومن الأمثلة الجامعة في ذلك :

تدرج القرآن مع العرب في الشريعة، فبدأ بالأصول قبل الفروع، أو وزّع الحكم على مراحل زمنية حتى تستوعبه النفوس كالخمر، والربا.

فقد بدأ القرآن بالأصلين الجامعين: (العقيدة، والأخلاق)، فلما أسس لهما في القلوب، أنزل الله التفصيلات على نفوس مستعدة لها، فنجح نجاحًا غير مسبوق ولا ملحوق، من حيث فشلت مناهج الناس ومذاهب البشر، وفي ذلك يقول تعالى:
(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا)الإسراء:106

وتجمل أم المؤمنين عائشة هذه (الحكمة القرآنية) البالغة فتقول:

---

(1) الحديث رواه مسلم في صحيحه بلفظ "فإن خلق نبي الله كان القرآن" جـ2 ص 169 "باب صلاة الليل".

"... إنما نزل أول ما نزل منه سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنى أبدًا..."(1).

وفي القرآن العظيم آيات كثيرة تقرر هذه الحكم القرآنية، فإذا جمعت موضوعيًا، ثم فسرت على هذا النمط، ورتبت تحت عنوان جامع، لقام بين أيدينا علم جليل عظيم، لا يقل وجه الإعجاز فيه عن سابقه، ولذلك ألحقه العلامة المحقق صاحب "مناهل العرفان" بمبحث (إعجاز القرآن)(2)، وسماه بعض الباحثين بحق: (علم فقه القرآن) أو "فقه الإسلام" وبيان منهجه في هداية البشر (3)، وهو علم لم يستوف حظه من البحث والتأصيل ليكون معالم الهداية القرآنية، في طريق البشرية.

العنصر الثالث تصحيح : مسار الدراسات القائمة:

وعلى هذا الأساس سيكون للتفسير الموضوعي مهمة بالغة في تصحيح الدراسات الدينية، والعربية القائمة فعلا، وإصلاح مسارها، وضبطها على معايير قرآنية جامعة.

وهذا موضوع طويل، ومتشعب، ويحتاج إلى مزيد من التمحيص والتدقيق لا يتسع له المقام في بحثنا هذا، ولكننا نوجز بعضه على سبيل الإشارة، ولفت أنظار العلماء إليه:

أ- تصحيح طريقة النظر في القرآن الكريم :

---

(1) البخاري في الصحيح: "كتاب فضائل القرآن- باب تأليف القرآن جـ6 ص100.

(2) جـ2 ص257، الوجه السادس من وجوه الإعجاز: سياسته في الإصلاح.

(3) انظر الرسالة الصغيرة النافعة: "محاضرات في التفسير الموضوعي للقرآن" ص48 للشيخ فوزى عثمان.

فإن للقرآن كما قلنا أصوله الجامعة، وقواعده الحاكمة، التي لا تعلم إلا بالاستقراء الكلي للألفاظ والدلالات، لتصبح حكمًا في تقرير القضايا.

ولكن كثيرًا من الفرق نظروا في القرآن نظرة مقلوبة، فبدلا من البحث عن أصوله ليتحاكموا إليها، نظر كل فريق فيه بحثًا عما يؤيد مذهبه الذي اعتنقه عن هوى، أو عن طريق نظرة جزئية عجلى، تجعل من الآية الواحدة أصلا ينزل عليه ما عداه، بلا استقراء لموقف القرآن الكلي من الموضوع، أو تأخذ الآية الواحدة منقطعة عن معاني القرآن، وبيان السنة، وفهوم الصحابة وقت النزول، كما حدث من الخوارج، والشيعة، والمعتزلة، وغلاة الصوفية، إلى القاديانية والبهائية وغير ذلك من الفرق الضالة.

ومن هنا وقع التكلف والاعتساف في فهم الآيات، ولجأت كل فرقة منهم إلى التأويلات الفاسدة، وصرف الآيات عن ظواهرها وحقائقها، وكثر القول بالنسخ من غير دليل، وردوا الأحاديث الصحيحة التي تفسر القرآن إذا خالفت أقوالهم.

وبذلك صار القرآن فرعًا يفسر على (أصول) خارجة عنه، وسابقة في عقول كل فرقة عليه، لأنهم استخلصوها من طرائقهم الفقهية، أو الكلامية، أو اللغوية، واستمدوها من النظر في فروع المسائل، أو مذاهب الفلسفة، أو شواهد اللغة المجردة(1).

ب- إصلاح طريقة التفسير وإنضاجه :

---

(1) انظر رسالة ابن يتمية رحمه الله: "مقدمة في أصول التفسير" ص79 وما بعدها ورسالة: "محاضرات في التفسير الموضوعي" ص46.

وذلك بحصر الجهود في الحقائق والمقاصد القرآنية، وجمع العزائم عليها، ليأخذ التفسير وجهته الصحيحة، لأن القرآن العظيم هو كتاب الهداية، وهدايته تكمن في حقائقه ومقاصده ومعانيه، (والتفسير الموضوعي) هو الذي يحقق هذا، ويبرزه أكثر من غيره ، وبذلك يوحد جهود المفسرين حول لباب القرآن، ويحفظ طاقتهم الفكرية العظيمة من التبدد في القشور والأشكال، لأن "التفسير الموضوعي" نمط علمي منضبط ومحدد، يدور فيه الجهد حول جمع الآيات، واستخلاص حقائقها المباشرة، أو استنباط معانيها وخطوطها الجامعة المؤكدة فلا يجد المفسر فرصة للاستغراق في لونه الفني، الذي طغى على التفسير قديما: كالنحو والإعراب، والجدل الكلامي، والاستطراد الفقهي، وضروب المجاز البديع، والإسرائيليات، ونحوها من الفنون التي غلبت على التفسير، حتى أبعدته عن وجهته وغايته الأصلية.

والمفسر الموضوعي قد يذكر شيئا من هذه الفنون عَرَضًا لا غَرَضًا، ولبيان معنى جزئي في موضعه، بحيث لا يقطع عليه الموضوع الأصلي، ومن ثم يتخلص التفسير من الحشو الزائد، والاستطراد لأدنى ملابسة، ويجد المفسر نفسه دائما في دائرة الموضوع الواحد، المحدد المعالم، والمتقيد بالآيات الكريمة ذاته ا، وفي إطار معانيها ومقاصدها، وحقائقها العليا، وفق المنهج العلمي الصحيح.

وبذلك يصحح (التفسير الموضوعي) ذلك الخلل التاريخي الخطير، الذي وقع في أعظم العلوم الإسلامية وهو "التفسير" ثم تسرب منه إلى سائر الدراسات الدينية والعربية.

وبذلك أيضا نرجو أن يصل علم التفسير جملة إلى مرحلة "النضج" التي تمناها العلماء من قديم، وعمل لها المحققون منهم ولا يزالون، ولكل أجل كتاب بإذن الله تعالى.

ج- ضبط القواعد العلمية :

فإن جمع الآيات موضوعيًا، وتحديد دلالات الألفاظ القرآنية من خلال النظرة الكلية الجامعة، يؤدي إلى تصحيح كثير من القواعد، والقوانين، والأحكام الكلية، التي قال بها أصحاب الفنون العلمية المختلفة، في الدراسات الدينية واللغوية جميعا.

ذلك لأننا حين ننظر إلى كثير منها نجدها قائمة على غير استقراء كلي، أو إحصاء واستيعاب شامل، ولو رجع واضعوها إلى: (التفسير الموضوعي) لصححوها بأنفسهم، ولحسمت مادة الخلاف بين العلماء في كثير من القضايا.

وعلى سبيل المثال في التفسير تلك القاعدة التي أوردها كثير من المفسرين، وجعل لها بعض الرواة سندًا إلى (أبي بن كعب) رضي الله عنه، قال: "كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو العذاب"[1].

ومن العجيب أن يعود الإمام السيوطي فيضع هذا في (قاعدة كلية) أخرى فيقول: ".. ومن ذلك الريح ذكرت مجموعة ومفردة، فحيث ذكرت في سياق الرحمة جمعت، أو في السياق العذاب أفردت".

ثم ذكر الأثر السابق، ثم أخذ يلتمس حكمة ذلك ويعلله، إلى أن يقول: "وقد خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى في سورة يونس: 22 (وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ..) وعلى ذلك جرى قوله تعالى (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ....)(الشورى33)، وقال ابن المنير: إنه على "القاعدة"، لأن سكون الريح عذاب وشدة على أصحاب السفن"[2].

---

[1] الإتقان جـــ1 ص144 "النوع التاسع والثلاثون: معرفة الوجوه والنظائر".

[2] الإتقان جـــ1 ص192 "النوع الأربعون".

ورحم الله أئمتنا الأعلام، كيف فاتهم –مع حفظهم التام– خلل هذه القاعدة؟!

وأظن – والله أعلم– أن سبب ذلك هو عدم جمع الآيات كلها والنظر فيها مجتمعة قبل تقعيد "القاعدة"، وحينئذ نقول بالقاعدة، أو نَعْدل عنها، أو نُعدّلها، وهذه وظيفة التفسير الموضوعي، وإحدى فوائده الجليلة.

وبيان ذلك :

أن (الرياح) وردت في القرآن الكريم مفردة: (تسع عشرة مرة)، منها (سبع) في الخير والرحمة، أي أكثر من ثلثها، فكيف تؤسس قاعدة على مثل هذا الاستثناء؟!

والآيات السبع التي خرجت على القاعدة هي: (بعد الآيتين اللتين ذكرهما الإمام السيوطي):

1- (..إنِّي لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ....) يوسف:94

2- (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ...) الأنبياء:81

3- (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ...) سبأ:12

4- (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً....) ص:.36

5- (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...) الأنفاق:46.

ووردت (الرياح) مجموعة في القرآن (عشر مرات) كلها في الخير، إلا واحدة فتحتمل الأمرين وهي: (فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ...) الكهف:45.

وعلى ذلك تصحح القاعدة هكذا :

"إذا جمعت الرياح في القرآن فهي في الرحمة، وإذا أفردت استعملت في الرحمة والعذاب، والأخير أكثر".

ومن هذا القبيل قول بعضهم: (كل شيء في القرآن "قليل"، "وإلا قليل" فهو دون العشرة) (1)

وهذا كلام يدحضه ظاهر القرآن نفسه في عديد من الآيات الكريمة، ويكفي قوله تعالى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ....) سبأ:13.

ولو لم يدخل فيهم إلا الأنبياء لكفى، ولجاوزوا العدّ.

والغرض أن ينتبه من يتعرض للتفسير الموضوعي غاية الانتباه، ويأخذ حذره حتى لا يقع في حكم قاصر، أو قاعدة ناقصة، أو أصل منقوض، وأولى الناس أن "يتبينوا" وأن "يتدبروا" القرآن هم علماؤه ومفسروه، والله يعصمنا جميعًا من الزلل خاصة في كتابه ودينه.

ولشيخ شيوخنا العلامة محمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله تعالى دراسات علمية جامعة عن أسلوب القرآن، وقد نحا فيها نحوا عجيبًا فريدًا، تجعل من أسلوب القرآن حَكَمًا في كل ما يعرض للدارس من قوانين النحو، والصرف، وتسجيل الظواهر اللغوية والنحوية في ضوء الأسلوب القرآني الإحصائي، بعد أن استبد بها الشعر دهرًا طويلا، وبذلك أصبحت قواعد القرآن معيارًا لهذا الباب، يصحح الأخطاء القديمة، ويرد إليه ما يجد ويستحدث من قضاياه(2).

---

(1) الأتقان ج 1 ص144،145.

(2) راجع مقدمة كتابه: "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" القسم الأول جـ1 ص2 وما بعدها.

يقول الشيخ رحمه الله :

"وللنحويين قوانين كثيرة لم يحتكموا فيها لأسلوب القرآن، فمنعوا أساليب كثيرة جاء نظيرها في القرآن، من ذلك:

1- ذكر سيبويه قبح "كل" المضافة إلى نكرة في أن تلي العوامل ... وجاءت "كل" المضافة إلى نكرة مفعولا به في 36 موضعا في القرآن الكريم ...(وقد ذكرها الشيخ بالتفصيل).

2- منع ابن الطراوة أن يقع المصدر المؤول من "أنْ" والفعل مضافا إليه...

وجاء هذا في ثلاثة وثلاثين موضعا من القرآن الكريم .

3- منع النحويون وقوع الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب وعللوا ذلك بأن وقوعه بعد الإيجاب يتضمن المحال أو الكذب.

وفي القرآن ثماني عشرة آية وقع فيها ذلك وفي بعضها كان الإيجاب مؤكدًا مما يبعد تأويله بالنفي كقوله تعالى: (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلا عَلَى الْخَاشِعِينَ) البقرة:45

ثم يقول الشيخ رحمه الله :

"ولبعض النحويين جرأة عجيبة: يجزم بأن القرآن خلا من بعض الأساليب من غير أن ينظر في القرآن، ويستقري أساليبه، .. (وذكر أمثلة كثيرة)... كذلك رأينا بعض النحويين يخطيء في حصر ما جاء في القرآن حينما يتعرض لذلك.." (1) ثم ذكر الأمثلة. أ.هـ

---

[1] المرجع السابق ص7-14 مع اختصار يسير.

والفضل لله العليم الخبير الذي ضمّن القرآن العظيم كل هذا العلم المحيط ، وقد بينت أكثر من ذلك بتوسع فى كتابى (المدخل إلى التفسير الموضوعى)نسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا من هديه وأسرار كتابه الكريم .